

سوسيولوجية التنمية الريفية المحلية المستدامة

أ- سعيدي توفيق، أستاذ مساعد قسم (ب)

قسم العلوم الاجتماعية/ جامعة بن خلدون تيارت الجزائر

Résume

- Au niveau du vocabulaire arabe et d'après la référence Socioculturelle en Algérie le concept de la famille sa donne en quelques sorte entre des fluides significatifs. c'est-à-dire la réalité des faits sociaux s'ordonne la structure hors la fondation de théorie européenne. C'est autres chose que les études empirique quelques récites les chiffre. Faus bien comprendre nous société. il faut retourner l'étude. Vers la relation entres développement et les réseaux anthropologique nous somme autan que des experts au stade de science sociales juxtaposé à une réflexion dramatique au niveau épistémologique. est ce que nous somme prêt au tan que société pou adapté d' après l' approche et la doctrine de la sociologie et/ou malgré tous les chimères doctrinés par la force du projet sociale nous les réincarnés logiquement selon les l'esprit analyse anthropologique parce que nos sociétés tiers-mondiste n'étaient pas de la même manière que expérimentation européenne !.

الكلمات المفتاحية للمقال:

-أنثروبولوجيا، التنمية المستدامة، العائلة الريفية، جينالوجيا الفرد والمجتمع،

الإنتاج المعاشي، الإنقلاب الوظيفي.

.ملخص:

لم يعد بالإمكان أكثر من اي وقت مضى على أن يعيش أي مجتمع في أي فضاء بمفرده أو بمعزل عن متغيرات المحيط العالمي، وهو المحيط الناتج عن مخاض التجربة

المجتمعية الغربية¹ التي كرسست رغم أخطائها مبادئ العقلانية والرشاد في إمتلاك معالم السير وإستغلال الثروة بشكل يضمن عدم الانزلاق مع المستقبل²، والأكد أن مدلول التنمية المحلية الريفية المستدامة لا يخرج عن هذا الإطار³ ومنه فقد جاء هذا المقال كحوصلة لدراسة سوسيولوجية نظرية ميدانية تناولت مجتمعين محليين مرتبطين بمنظومة بيئية تشكلت مع بيرتي "تونقا وأبيرا". (وهن بحيرتين واقعتين بالقرب من مدينة القالة ولاية الطارف)، وقد ركزت الدراسة على الأبعاد الأساسية المكونة لمتغيرين التنمية المحلية الريفية المستدامة ويمكن تخليصها من خلال المستويات الآتية:

1- المستوى الجينالوجي: تعود أصول سكان المجتمع المحلي الريفي المحادي للبحيرتين إلى عدة منحدرات اجتماعية محلية قبلية ويمكن حصرها كما يلي:

(أ) **عرش الجندوبة:** قدم سكان هذا العرش مع مطلع عشرينات القرن 20م وتم ذلك في إطار التفاعل السكاني القائم على متغير الترحال الباحث بإستمرار على إيجاد أفصل المجالات الحيوية الطبيعية للعيش والبقاء.

(ب) **بقايا عرش أولاد خمير وبني مازن:** تفتت هذه الأعراس التونسية نتيجة تبلور مظاهر وملاح العائلة البورجوازية مطلع الأربعينات وهي التي سيطرت على موازين القرى ما أدى إلى إستحالة قدرة تلك العائلات على البقاء ومنه الترحال خارج قواعد فضائها الأصلية.

(ج) **أعراس المناطق الداخلية الجزائرية:** من خلال البحث حول سبع بلديات في ولاية الطارف وبإتباع مراجع الحالة المدنية وكذا شهادات كبار السن وهي شهادات تناقلت شفاهيا جيلا بعد جيل حيث كلها في نفس المعلومة والتي مفادها قدوم عدد كبير من العائلات، ترجع إلى المناطق الداخلية الجزائرية كفرقة السبابة القادمة من بريكة (عرش أولاد دراج)، وكذا فرقة أولاد عريض التي قدمت من الصحراء الجزائرية والتي

¹ لورنس هيو: التنمية الريفية، حدود علمية، ترجمة ت: الزاوي، مؤسسة التعاون للطبع والنشر والكتابة، مصر، سنة 1997.

² نبيل السمالوطي: علم اجتماع التنمية، دار النهضة العربية، مصر، سنة 1981م.

³ د: رشاد غنيم، دراسات في علم اجتماع الريفي، دار المعرفة الجامعية، مصر، سنة 1997، ص: 285.

تعود إلى عرش أولاد نايل، وكذلك بعض العائلات قدمت من بني ورتيلان (بجاية) وترجع إلى عرش سيدي عبد الرحمان¹.

. حوصلة جينالوجية: من خلال هذه الصور المكبرة لأصول السكان يتضح تنوع المصادر الأصلية لتلك المناطق المحايدة لبحيرة أويبرا وتونقا، غير أن الخط الثابت في كل هذا هو متغير الترحال وهو على العموم الميزة التي شهدتها سكان المغرب العربي ككل عبر التاريخ ليرجم هذا التغير أي الترحال تعرض الأطر البشرية لحيثيات البحث على القدرة على العيش في مكان، ما يعني أيضا تلك المجموعات البشرية تميزت بضعف القدرة على المكون في المكان وتجاوز العقبات تحت أي نوع كان وهو ما يعني بالضرورة سيادة منظومة قيم ثقافية تاريخية يتسببها مبدأ الكفاف أي الإكتفاء بمجرد توفير الشروط الأولية للحياة 4، ولعل هذا التنوع يقودنا حتما على تناول البعد الأنثروبولوجي وذلك كالآتي:

2- المستوى الأنثروبولوجي: يمكن تقسيم مجتمع البحث من أجل فحص خواصه التفاعلية على أربع حالات وذلك على النحو الآتي:

أ) في الحالة الاقتصادية: من خلال المعاينة المباشرة تبيين مظاهر الحالة الاقتصادية لمجتمع البحث وهي على تنوعها وعمومها الجينالوجي، تحكمها عقلية معاشية بسيطة وسطحية، إن تفاعل تلك المجموعات البشرية بظروفها التاريخية قام على مبدأ الكفاف الأفقي أي الإكتفاء كل الإكتفاء بمجرد ضمان القوت ومنه إستحالة تشكل طموح إتجاه الفرد أو الجماعة يمكن من خلاله تكريس الحد الأدنى للثروة والواقع أن هذه الحالة تدخلت فيها بعد وفعلت ما أرادت في الكثير من المتغيرات التنموية التي أبقت وقيدت المجتمع ، بل وجعلته مرهونا بحالة البقاء ضمن الحلقة المفرغة للتخلف وتتمظهر هذه الصورة بشكل واضح وصريح على مستوى الفلاح باعتباره الفاعل الاستراتيجي للتنمية المحلية الريفية وهي الحالة التي ترصد عبر الكثير من المؤشرات الكمية للإنتاج الزراعي التي تنتهي في معظمها نحو إثبات فرضية سيادة عقلية الكفاف،

¹ أبو طاحون علي، مناهج وإجراءات البحث الاجتماعي، القاهرة، المكتب الجامعي الحديث، سنة

أي عدم المغامرة خارج حدود التجربة المحلية الضيقة ويتضح هذا أيضا من خلال المستوى الثاني أي منظومة التفاعلات الرمزية الاجتماعية وذلك كالآتي:

(ب) منظومة القيم التفاعلية الاجتماعية: إن القيم بتعبير ماكس فيبر حقيقة من حقائق الفعل الاقتصادي فهي العامل الأهم في صناعة الواقع التنموي ، ولذلك فقد تم رصد منظومة القيم الاجتماعية الرمزية المرتبطة وظيفيا بمتغير التنمية من خلال المحطات الآتية:

ب.1) العائلة: تعد العائلة الخلية الأساسية القاعدية لبنية أي مجتمع، لكن هذا العنصر يحتاج إلى تعمق نظري معرفي إبستمولوجي، وذلك أن المنظومة الفكرية الأصلية للمجتمع الجزائري تقوم على معاني ودلالات مفهوم العائلة بدلا من الأسرة ولفهم أهمية هذه الحقيقة الفارقة سوسيولوجيا نحتاج إلى فحص معنى العائلة من الناحية الدلالية، فالأصل في هذه الكلمة هو العودة إلى الفعل عال، أعال أي تحمل وقاد، كبر وزاد وتوسع، وهذه الأفعال مقصود بها مسؤولية هذه الوحدة الاجتماعية ضمن إستراتيجية قيادة بقية الفروع الأسرية الأخرى المتموقعة والمتوحددة ضمن نطاق مفهوم العائلة وهو ما يقود إلى صعوبة تقبل مفاهيم الأسرة بالمعنى النظري الغربي لأنه وبرغم تطور حجم البنية البشرية الأسرية الجزائرية فإنها ما تزال تحكم منظومة القيم العائلية الريفية الأصلية بالمعنى الأنثروبولوجي للكلمة كما أن الخروج عن هذا الإطار يشكل تجاوز قيمي مرفوض نسبيا من قبيل الإطار المرجعي العائلي الأصلي الممثل والمتبلور إلزاميا على مستوى الين الذهبية.

ولذلك فإنه وعلى مستوى مجتمع ريفي تمثل العائلة المجال الحيوي لاستقطاب الفرد والجماعة وهذا ما يتضح من خلال العنصر الآتي:

— الإستقطاب: انطلاقا من المحتوى البنيوي الوظيفي للعائلة الريفية الجزائرية فإنها تمثل العامل الإستراتيجي القاعدي في خلق وصناعة منطلقات إتجاه الفعل على مختلف المستويات (الفرد والجماعة) ،ولذلك فقد لعبت هذه الأخيرة دورا كبيرا في بلورة الصورة العامة للمجتمع من ذلك إعادة إنتاج المجتمع الريفي لمحتواه ولكن يتناقض صريح مع إطاره الطبيعي، ويتضح هذا جليا على مستوى التشكيلة العمرانية الريفية التي صممت في السبعينات تحت مسمى القرى الاشتراكية والتي قدرت تفنيا وتنمويا ضمن الإطار الاجتماعي للتنمية، فبعد أن كانت هذه الوحدات العائلية متموقعة تاريخيا في إطار

إنتاج وإعادة إنتاج المقدرات الفلاحية فقدت هذه الأخيرة وظيفتها الأساسية بل وتعارضت من حيث الشكل مع صورتها السوسيولوجية.

لعل السبب السوسيولوجي هو إستقطاب العائلة الريفية لمكوناتها البشرية ضمن نطاق الرقعة الجغرافية المخصصة ريفيا، وهي الرقعة التي يفترض أن تكون مستغلة بتركيز بشري محدود¹ فلقد كان نمو النسل العائلي للفلاح يتراوح من بين 6 إلى 12 فردا في الحالات العادية، وهو ما يعني ضرورة إعادة فتح وتوسيع المجال العمراني² خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار تقدم سن الزواج على مستوى العائلة الريفية الفلاحية، مع عدم قدرة الأسرة الناشئة على المغامرة السكنية في المدينة وتتضح أزمة هذا البعد الديمغرافي الناشط وفق معطيات المجال السوسيوثقافي للعائلة الريفية فكل أنماط الفعل المنتجة ضمن المسمى الفرد أو الجماعة إنما هي تمثيلات منتجة بالضرورة ضمن حلقة تفاعلية العائلية الكبرى.

ومنه فإن العائلة الريفية تتغير إنطلاقا من مكوناتها الأصلية وفي إطار حدودها الأنتروبولوجية العامة ما يعني ظهور مشكلات عميقة على مستوى المنظومة التنموية، والتي ظلت أسيرة الحلقة المفرغة لدورات رأسمال على حالة دون القدرة على المغامرة خارج الحدود لتزداد هوة المشكلة أكثر من ذي قبل وهو ما يتضح من خلال العنصر الآتي:

— **اللامعيارية الريفية:** إذا ما عرفنا المدينة على أساس أنها مجموعات بشرية كبيرة منتظمة في نسج عمراني متكامل الأبعاد بما يؤهل البنية للتفاعل والتعايش ضمن تكامل الأبعاد المشكلة للنسق العمراني، فإن تعريف المجتمع الريفي يقود إلى أنه وحدة بشرية أقل كثافة في رقعة جغرافية متسعة أشد الإتساع وهو تركيز بشري مموثق، بطريقة هندسية وتكتيكية يهدف على تحقيق المنتج الزراعي، فمن خلال تحليل محتوى المخطط العمراني على مستوى المجتمعات الريفية المحاذية للبحر يتضح أنه

¹ Coulon (A) : L'Ethnométhodologie, Que Sains Je ? Presses Universitaires de France, 2002, P : 39.

² مراجعة محمد عصور، دار كويت (إيان): النظرية الاجتماعية من بار سونز إلى هابرماس، الكويت، ترجمة

محمد حسين غلوم دار المعرفة، سنة 1997م، الكويت، ص: 50.

لا يمكن إسقاط المفهومين السابقين للريف والمدينة على واقع المجتمع المحلي المحاذي للبحرئين ذلك أن النسق الذي تم فصلت على أساسه الأسر الريفية لا يتفق مع تعريف المدينة ولا يمكن له أن يتفق مع مفهوم الريف بإعتباره حالة سوسيوإقتصادية من ضمن المؤشرات التي تثبت هذا نمو الخرسانة المسلحة بنسبة 0.55% في كل هكتار، وإتجاه الفلاح لإقتناء المواد الغذائية التي كان ينتجها من سوق المدينة (القالة، عنابة)، ولعل هذه الحالة نجمت أيضا بسبب تقلص النسبة الحقيقية في معادلة المجتمع الريفي، مع نمو نسبة تراجع الشباب نحو هذا العمل لأسباب مقفعة من وجهة نظر الشباب أنفسهم الذي لم يتحصل بشكل سلس على ميراث منظومة القيم الفلاحية المحصلة عبر التجربة التاريخية للمجتمع المحلي والتي برغم قيامها على مبدأ الكفاف إلا أنها إصطدمت بمشكلة أكثر حدة وهو ما يتضح من خلال العنصر اللاحق:

(3) البعد الأيكولوجي: يتعلق الأمر بما تعرضت إليه بحيرة أبيراتونقا من تداخل إيكولوجي رهيب أثر بشكل مباشر وجلي على المقدرات المعاشية للعائلة الريفية حيث أخذ مفهوم التنمية المحلية المستدامة مأزقا ذو بعد مزدوج، فبعد أن كانت المشكلة تكمن في محاولة تغيير النسق الاجتماعي الريفي في اتجاه تحقيق إنطلاقة التنمية بما يؤهله لأن ينتقل من مرحلة الإنتاج المعاشي القائم على مبدأ الكفاف وجدت العائلة الريفية نفسها في حالة عدم القدرة على ضمان الحالة الأولى أي الوضعية العادية الطبيعية قبل نفاذ سيرورة المشروع.

تتضح صورة هذا المأزق من خلال وضعية البحيرتين باعتبارهما مصدرين أساسيين في تحصيل المكتسبات المعيشية للعائلات الريفية وذلك كالآتي:

(أ) بحيرة أويرا:

أدمجت هذه الأخيرة ضمن اتفاقية (رامسار) واعتبرت كمحمية عالمية منذ سنة 1983م، غير أنها تعرضت لجملة من القرارات الإرتجالية والتي عادت عليها بنتائج معكوسة تماما، فبعد أن شيدت القرى الاشتراكية سنة 1976م ثم تسربت قنوات صرف المياه إلى البحيرة وهو ما أدى إلى تلوث بيئي للمياه بمصدر إنساني، ما أدى إلى انهيار المنظومة السمكية الأصلية والتي انقرضت بشكل نهائي في بعض أنواعها، وهي الثروة التي كانت منذ تشكل تلك المجتمعات أي العائلات الريفية مصدرا مستديما للغذاء.

إضافة إلى هذا هناك تردي الوضعية العامة للثروة النباتية المائية التي انهارت نهائيا مع مطلع التسعينات بعد أن خضعت البحيرة بتجارب تربية الشبوط الصيني وهو سمك اصطناعي يعد في الأصل لتنظيف السدود يعيش على النباتات وبقايا الطحالب ما أدى بالبحيرة إلى التحول الجذري بما جعل منها بركة مائية كبيرة حتى أنها كانت في السابق وفي مرحلة الشتاء تقوم بتسميد آلي للأراضي المحاذية لها بعد مرحلة كل فيضان حيث تدفع بالنباتات والبقايا لتكون في الصيف والربيع أماكن حية ترعى فيها الأبقار، فبعد سنة 1990م لم يعد بالإمكان الحصول على العشب الذي كان متوفرا، ففي ظل سيطرة ثقافة الكفاف تراجع عدد رؤوس البقر من 7200 سنة 1987م إلى 500 رأس سنة 2012 وهذه الصورة ما تزال في حالة نمو عكسي مستمر وهو ما أثر على وضعية الثروة العائلية الريفية الفلاحية الأصلية.

(ب) بحيرة تونقا:

إن أول ملاحظة يمكن رصدها هو الربط بين البحيرتين من الناحية الوظيفية الأيكولوجية ومنه فإن أول ظاهرة عرفت بها بحيرة التونقا هي أزمة الطيور المهاجرة التي كانت تعيش بين البحيرتين في فصل الشتاء والربيع بحيث كانت بحيرة أنترا المحصن الطبيعي لتفريغ في فصل الربيع بسبب موقعها الجغرافي في علاقتها بالبحر الأبيض المتوسط أي ضمان مقدار الرطوبة الملائمة لتلك العملية.

كانت بحيرة تونقا إطار إستراتيجي للثروة الحيوانية لكنها فقدت هي الأخرى هاته الخاصية بسبب قرار توقيف صرف مياهها كل خمس سنوات إلى البحر سنة 1971م وهي العملية التي كانت تساهم في تجديد طاقة استيعاب البحيرة ما جعلها بسبب تركيبها الجيولوجية مجرد كتلة أحوال كبيرة وهو ما أثر مباشرة على الثروة النباتية التي كانت مصدر للتغذية الحيوانية إذ تثبت إحصائيات المرشدين الفلاحين تراجع عدد رؤوس البقر بين 1987م وسنة 2012م تراجع يتجاوز 500 رأس تقريبا وهي الصورة نفسها التي تعبر عن تراجع مكتسبات العائلة الريفية البسيطة.

.إستنتاجات عامة للدراسة:

خلصت الدراسة بجملة من الاستنتاجات يمكن تلخيصها عبر ثلاث مستويات

الآتية:

(أ) المستوى النظري:

يتضح من خلال هذه الدراسة أن مفهوم التنمية الريفية المحلية المستدامة هو عملية إستراتيجية تستهدف رفع مستوى وتائر النسق في إطار الخواص الأصلية للمنظومة الاجتماعية الأصلية.

إن التنمية المستدامة ليست نوع من أنواع التنمية ولكنها المعيار الشرطي والموضوعي لكل عملية تنموية ممكنة ذلك أي الاستدامة تشير في أهم معانيها إلى دفع المجتمع المحلي نحو اكتشاف ثرواته، من دون التناقض مع مصير قواه وطاقته المحركة. إن العائلة الجزائرية كمفهوم نظري تحتاج إلى إعادة النظر على مستوى فحص مكوناتها الحقيقية ذلك أن إسقاط النظرية الغربية التي درست الأسرة كنتاج لمجتمع صناعي في حين العائلة الريفية الجزائرية ما تزال تحتفظ بهوامش تكوينها الأنتروبولوجي وهو الهامش الحقيقي لتكوينه الأصلية للمجتمع الجزائري.

إن أي تنمية محلية مستدامة تقتضي مشاركة المعنيين بهذه العملية لأن في ذلك ضمان وعي الأفراد والجماعة بمسار سيرهم ومنه تجنب حالة العداء مع مشاريع التنمية واللامبالاة بمكتسبات العملية.

(2) المستوى المنهجي:

تتضح أهمية تحليل الديناميات الداخلية المادية والذهنية وفي هذا الإطار فإن الحقيقية الاجتماعية تؤسس من المنظور الذي يتبناه الفاعل¹ الاجتماعي عبر نشاطه الذهني اليومي وهذا ما أقرته المقاربة الأكثر منهجية أو ما أصطلح على تسميتها منهجية النظام الاجتماعي²، وعليه فإن منهجية النظام الاجتماعي هي محاولة لسبر أغوار مواقف الحياة اليومية لفهم أسلوب المجتمع للتعايش مع مشكلات اجتماعية وعليه فإن المسألة الموضوعية هي نأخذ تلك الأفعال الملموسة لدى الجميع لأن تفحص حتى

¹ د: محمد علي محمد: مقدمة في البحث الاجتماعي، دار النهضة العربية، بيروت، بدون طبعة، سنة

1988م، ص: 41.

² زين الدين عبد المقصود: البيئة والانسان، دراسة في مشكلات الانسان مع البيئة، بدون سنة.

تتبين كيف وقعت ولماذا وقعت وما هي الإعتبارات المعطاة كمقتضى معاشي حتي تفرضه قواعد البقاء الاجتماعي بالشكل الذي يفرضه ويرتضيه المجتمع المحلي¹.

.المراجع المعتمدة:

1. لورنسش هيوز: التنمية الريفية، حدود عالمية، ترجمة ت: الزاوي، مؤسسة التعاون للطبع والنشر والكتابة، مصر، سنة 1997.
2. نبيل السمالوطي: علم اجتماع التنمية، دار النهضة العربية، مصر، سنة 1981م.
3. د: رشاد غنيم، دراسات في علم اجتماع الريفي، دار المعرفة الجامعية، مصر، سنة 1997، ص: 285.
4. أبو طاحون علي، مناهج وإجراءات البحث الاجتماعي، القاهرة، المكتب الجامعي الحديث، سنة 1998م.
5. Coulon (A): *L'Ethnométhodologie*, Que Sains Je ? prés Universitaires de France, édition 2002, P : 39.
6. مراجعة محمد عصور، دار كويت (إيان): النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس، الكويت، ترجمة محمد حسين غلوم دار المعرفة، سنة 1997م، الكويت، ص: 50.
7. محمد علي محمد: مقدمة في البحث الاجتماعي، دار النهضة العربية، بيروت، بدون طبعة، سنة 1988م، ص: 41.
8. زين الدين عبد المقصود: البيئة والانسان، دراسة في مشكلات الانسان مع البيئة، بدون سنة.
9. عبد الله عطوي: الإنسان والبيئة في المجتمعات البدائية والنامية والمتطورة، مؤسسة عزالدين للطباعة والنشر، لبنان، بيروت، الطبعة الأولى، سنة 1993.

¹ د: عبد الله عطوي: الانسان والبيئة في المجتمعات البدائية والنامية والمتطورة، مؤسسة عزالدين للطباعة والنشر، لبنان، بيروت، الطبعة الأولى، سنة 1993.

10. عاتي بلال : الوضعيات البكتيريولوجية لبحيرة أويرا، مذكرة لنيل شهادة
ليسانس في البيولوجيا النباتية، جامعة باجي مختار عنابة، 2006.